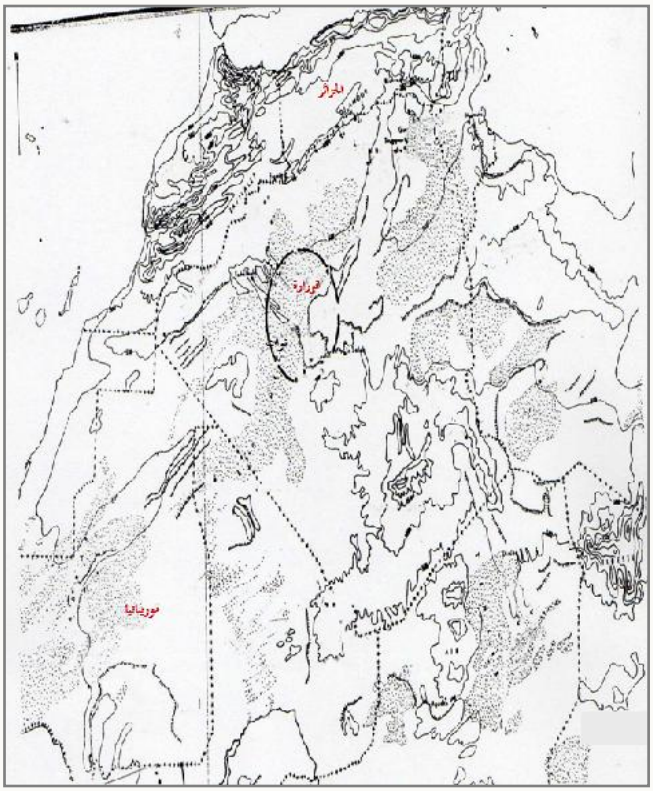

خارطة تبين موقع القرارة بالنسبة للجزائر

العوامل المؤثرة في تشكيل عمارة القورارة

البيئية – الدينية

نور الدين بن عبد الله

أستاذ مساعد آثار إسلامية

جامعة زيان عاشور - الجلفة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

chekkoul@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نور الدين بن عبد الله ، العوامل المؤثرة في تشكيل عمارة القورارة: البيئية والدينية.-دورية كان التاريخية.-العدد الحادي عشر ؛ مارس ٢٠١١. ص ٦٧ — ٧٢.

(www.historicalkan.co.nr)

الملخص

تتمحور الدراسة حول العوامل المؤثرة في العمارة التقليدية ، بمنطقة القورارة ، ذلك لأن العمارة تعتبر نتاج تفاعل الإنسان ، بتقاليده وإمكاناته مع ظروف البيئة المحيطة به ، ففي اللحظة التي ينتهي فيها بناء أي مبنى يصبح جزءاً من البيئة ، ويصبح معرضا لنفس تأثيرات الشمس ، أو الأمطار ، أو أي عامل من عوامل البيئة وفي نفس الوقت لا يمكن إهمال دور هذا الإنسان المنتج للعمارة والمستعمل لها ، وفي هذا نتحدث عن إيديولوجية هذا الإنسان ، وكيف تؤثر على إنتاجه الفني ، وقد عبر (محمود إبراهيم حسين)عن كل هذا العوامل بـ(الأنا الفاعلة في الفن والعمارة الإسلامية) ولهذا ارتأينا البحث في العوامل التي كان لها تأثير في توجيه عملية البناء التقليدي ، في منطقة القورارة(الجنوب الجزائري) ، وقد اخترنا كل من العامل الديني ، والعامل البيئي ، كمؤثرين فاعلين في العمارة التقليدية بهاته المنطقة ، لنخلص في الأخير إلى البصمة التي تركاها(العاملين المؤثرين)على النسيج المعماري بالمنطقة المذكورة ، سواءً كان ذلك من حيث اختيار مادة البناء ، وكذلك تخطيط الدور.

مقدمة

تعتبر العمارة نتاج تفاعل الإنسان ، بتقاليده وإمكاناته مع ظروف البيئة المحيطة به ، ففي اللحظة التي ينتهي فيها بناء أي مبنى يصبح جزءاً من البيئة ، ويصبح معرضا لنفس تأثيرات الشمس ، أو الأمطار ، أو أي عامل من عوامل البيئة ، فإذا استطاع المبنى أن يواجه الضغوط ، والمشكلات المناخية وفي نفس الوقت يستعمل جميع المواد المناخية والطبيعية المتاحة ، من أجل تحقيق راحة الإنسان ، فمبنى من هذا النوع يمكن أن يطلق عليه مبنى متوازنا مناخيا.[1]

فكما خضع الإنسان لسنة النشوء والارتقاء في أفكاره ومفاهيمه وأذواقه ، متأثراً بالبيئة الطبيعية وبالشعور الديني والتقاليد ، والوسط الاجتماعي ، فكذلك تطور إنتاجه الفني ، واختلفت مظاهره وخصائصه ، باختلاف الزمان والمكان ، إلا أنه ورغم الاختلاف ، فأوجه الشبه تظل كبيرة بين فن وآخر في عصر من العصور ، ذلك لأن التأثيرات الفنية تتسرب بسهولة عبر الحدود الفاصلة بين البلدان والشعوب ، بسبب تنقل الأفراد ، أو نتيجة الاحتكاك الدائم وتبادل الخبرات والمعارف.

وقد عمل إنسان المناطق الجنوبية من الجزائر على توفير الحد الأدنى من الضروريات في عمارته ، فجاءت بحق عمارة بيئية ، إلا أن هاجس العوامل البيئية ، لم يفارق هذا الإنسان في جميع أطوار عملية الإنشاء ، فيا ترى ما هي المعالجات أو الحلول التي اهتدى إليها لتكون عمارته عمارة متوازنة مناخيا؟ وبما أن العمارة هي نتاج فكر ما ، فأين يظهر لنا تأثير الفكر الديني(الإسلامي) لإنسان تلك المناطق ؟

منطقة القورارة (الموقع، الخصائص)

تعد منطقة القورارة ، المقاطعة الثانية لإقليم توات * ، وهي تقع إلى الجنوب الغربي للجزائر ، وذلك بحوالي ١٢٤٠كم ، وحالياً تتبع إدارياً ولاية ادرار إحدى الولايات الجنوبية للجزائر. وقد عرفت عند العديد من المؤرخين باسم(تيكورارين) ، وهي كلمة أمازيغية تعني المعسكرات ، وفي ذلك يقول ابن خلدون:(فمنها على ثلاثة مراحل ، قبلة سجلماسة ، وتسمى توات ، وفيه قصور متعددة ، تناهز المائتين ، آخذة من

الشرق ، إلى الغرب ، وآخرها من جانب الشرق ، يسمى تمنطيت ، وهو بلد مستبحر في العمران ، ومن هذه القصور قبلة تلمسان ، وعلى عشر مراحل ، منها قصور تيكورارين ، وهي كثيرة ، تقارب المائة ، في بسيط واد منحدر من الغرب إلى الشرق ، واستبحرت في العمران وغصت بالساكن)[٢].

أما الحسن الوزان فيقول:(تيكورارين منطقة مأهولة في صحراء نوميديا ،بعيد ة بنحو مائة وعشرون ميلا شرق تسابيت,حيث يوجد بها ما يقارب من خمسين قصر ، وأكثر من مائة قرية ، بين حدائق النخيل وسكانها أغنياء ،لأنهم اعتادوا الذهاب بسلعهم إلى بلاد السودان ، ويأكلون لحم الجمال ، ويستعملون في طعامهم الشحم المالح ، الذي يأتي به تجار فاس ، وتلمسان).[٣]

وكغيرها من مناطق الإقليم ، تمتاز منطقة القورارة ، بمناخ صحراوي ،جاف شديد الحرارة صيفاً ، حيث تصل درجة الحرارة فيه حوالي ٤٩ مئوية ، وبارد شديد البرودة شتاءا ،كما يميزه قلة سقوط الأمطار ، أما جيولوجيا ، فتتميزعن غيرها من مناطق الإقليم ، أنها أرض ذات سباخ ، تكثر بها المرتفعات والتلال الصخرية ، أما عن التركيبة البشرية ، فتتكون ، من الزناتة والعرب ، وهجين من الأفارقة.[٤]

وقد ورد في تقييد مغربي ، يرجع إلى عهد السلطان الحسن الأول ، أن منطقة القورارة ، تضم حوالي ثمانية قصور كبيرة ، وأن كل واحد من هذه القصور ، يضم عدداً من القصور ، وبذلك يكون عدد قصور القورارة ، حسب نفس التقييد حوالي ٨٦ قصراً [٥] ، نذكر منها ما يلي:

- قصور تيميمون:

وتتشكل من سبعة وعشرين قصرًا ، تقع في الناحية الجنوبية لسبخة تيميمون ، وتعد من أهم قصور المنطقة.

- قصور أولاد سعيد:

وهي عبارة عن ثلاثة قصور ،أهمها قصر الحاج قلمان.

- قصور تسابيت:

وتتكون من ثلاثة عشر قصرًا ، تمتد من الجنوب الغربي ، إلى الشمال الشرقي لوادي مسعود ، ومن هذه القصور ، قصر برينكان ،لمعيز ،الهبلة ، لقصابي وعريان الراس ، وقد وردد ذكر قصور تسابيت عند العديد من المؤرخين ، منهم الحسن الوزان الذي يقول:(تسابيت إقليم مأهول في صحراء نوميديا ، على بعد مائتين وخمسين ميلا شرق سجلماسه ، ومائة ميل من الأطلس يضم أربعة قصور وقرى عديدة ، سكانه فقراء لا تنبت أرضهم غير التمر وقليل من الشعير بشرتهم سمراء إلا أن نسائهم جميلات سمراوات).[٦] وقد لعبت منطقة القورارة دوراً مهما في حركة التجارة الصحراوية ، ذلك لوقوعها على محور تلك التجارة التي ربطت بين بلدان شمال افريقيا وبلدان السودان الغربي.

مفهوم البيئة

كثيرة هي التعاريف لمفهوم البيئة ، فمنها أنها الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ، ويؤثر فيه ويتأثر به ، حيث تتمثل فيما يحيط بالإنسان من هواء وماء وتربة وغيرها ، ومن جهة نظر العمارة والعمران ، فيتم تقسيم البيئة إلى قسمين: أولاهما البيئة الطبيعية التي خلقها الله ، والمتمثلة في كل ما يقع على سطح الأرض(جبال ، أنهار ، صحراوات.....) ، وبهذا فإن البيئة الطبيعية تشتمل على العامل الجغرافي والعامل الجيولوجي ، والعامل المناخي ، أما النوع الثاني من البيئة ، فهو البيئة الحضرية(المبنية) وهي من صنع الإنسان ، وهي بذلك تشتمل على كل ما أنتجه الإنسان من منشآت في البيئة الطبيعية.[٧]

وقد ورد في القرآن الكريم تحديداً للبيئة وعناصرها وذلك في قوله تعالى:(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)[٨]. فقد أفادت هذه الآية شمولية معنى البيئة ، حيث تضمنت السماوات وما فيهن من موجودات لا يحيط بها إلا الله ، ثم الأرض وما فيها من عناصر يمكن إيجازها فيما يلي:[٩]

أ- طبيعة سطح الأرض ، وتشمل الجبال والأودية ، وغيرها.

ب- الإنسان والحيوان والنبات وكل الكائنات الحية.

ت- البيئة العمرانية ، وتشمل مواقع العمران(المباني....).

أما ما بينهما فيستدل بها على المؤثرات الطبيعية ، والجغرافية والمناخية ، التي تشمل الشمس والهواء ، والريح، أ.. ما ما تحت الثرى ، فيستدل بها على المكونات الموجودة في باطن الأرض(مكونات جيولوجية ، خامات معدنية.....).

وتعتبر دراسة الغلاف الجوي و معرفة خصائصه مهمة للكائنات وخاصة الإنسان فالأرض في دورانها حول نفسها محاطة بغلاف غازي يعتبر جزءا منها ، ويبدو واضحاً أثر هذا الغلاف إذا تحرك الهواء بسرعة ، لأن الهواء هو الحيز الذي يعيش فيه الإنسان و الحيوان ، وهي ملزمة عند القيام بأي مشروع معماري و عمراني.[١٠]

وبما أن العمارة هي نتاج تفاعل الإنسان مع ظروفه البيئية ، فمن البديهي أن تكون للعوامل البيئية دور في توجيه عملية الإنشاء ، أو بمعنى آخر دو في تحديد نمط العمارة ، فعمارة المناطق الساحلية ، تختلف بطبيعة الحال عن عمارة المناطق الصحراوية ، ومن هذا المنطلق كان التنوع في الطرز المعمارية ، الذي عرفته العمارة الإسلامية ، بسبب اختلاف البيئات الطبيعية للبلدان الإسلامية ، ولهذا نجد بعض العناصر المعمارية تكثر في بلد وتنعدم في آخر . وعلى هذا الأساس ، يمكننا التسا ؤل عن دور العوامل البيئية في تشكيل عمارة منطقة القورارة.

تحكم طبوغرافية المكان في شكل المباني

تعد البيئة من العوامل ذات التأثير المباشر على طبيعة الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية للإنسان ، ويلاحظ ذلك في المسكن ، أو المأوى ، بدءاً من المواد المستخدمة في بنائه ، إلى الأساس المستعمل فيه ، مرورا بشكله الخارجي.[١١] ويمكن حصر العوامل البيئية التي كان لها تأثيرا بالغا على عمارة منطقة القورارة فيما يلي:

تأثير العوامل البيئية

جغرافية المكان:

تقع منطقة القورارة ضمن نطاق الصحراء الجزائرية الغربية ، وهي في المعظم أراض غير مستوية ، حيث تتضمن الكثير من الهضاب والتلال ،إضافة الى كونها أراض منخفضة تكثر فيها الكثبان الرملية ، وهي مناطق ذات طبيعة رسوبية[١٢] ، تتميز بكثرة مياهها الجوفية ، الشيء الذي جعلها صالحة للزراعة والاستيطان البشري ، والملاحظ أن جل قصور منطقة القورارة ، شيدت على هضبات مرتفعة عما يحيط بها من أراضي مستوية ، ومن ثم كان هذا الاختيار أنسب للضرورة الأمنية.

وفي هذا المقام يصفها Laureaux Pietro فيقول:(لُ البربر المنحدرون من شعوب فترة العصر الحديث ، والتي توجهت نحو السفانا الجنوبية ، بسبب التصحر الذي حل بمناطقها ، كونت أكبر سلسلة من القرى الحجرية ، الواقعة بين حوض البحر المتوسط ، وإفريقيا جنوب الصحراء ، وهي مبنية على مرتفعات معزولة ، ذات الشكل الدائري تحمل الصفة العسكرية ، فبذلك تأخذ صفة المراقبة ، وهي صفة الدفاع ؛ فالأجزاء المبنية في الأعلى ، فهي محصنة بالحجارة ، ومنظمة في شكل حجرات صغيرة ، بشكل مخازن ، ولقد هجرت غالب القصور القديمة ، وعوضت بقرى في الوادي ، بمحاذاة الحقول. كما أن الفضاءات والبيوت تتماثل بشكل كبير في نموذج خاص يعكس التنظيم الاجتماعي المعتمد في تلك المجتمعات ؛ أما الأزقة ، والممرات ، والأنفاق ، فتختلف أبعادها ومقاساتها لتعطي إحساسا هندسياً غير اعتيادي يستجيب للحماية الفيزيائية والمناخية في أنظمة متداخلة الواحد للآخر).[١٣]

وقد كان لجغرافية المكان دور كبير في تشكيل عمارة تلك المناطق ،والذي يمكن تلخيصه في مايلي:

- إن الناظر لعمارة القورارة ، يمكنه تميز مستويين من المباني ، واحدة بنيت على الهضبة المرتفعة والثانية في سفح الوادي ، كما يلاحظ أن مباني الهضبة ، متدرجة وكأنها بنيت فوق بعضها البعض ، وهذا راجع لاختلاف مستويات الأرضية التي نفذت عليها المباني.
- كما يلاحظ أثر الموقع وطبيعة الأرض في شكل القصبات والذي يحدده سورها الخارجي ، فقد جاءت تلك الأسوار إما دائرية أو غير منتظمة ، وذلك بسبب عدم تهيئة الموقع قبل عملية البناء ، كما أثرت محدودية مساحة الهضبة على مساحة المنازل التي اتسمت بصغر حجمها.
- إضافة إلى ما ذكر يظهر تأثير الموقع في تخطيط الشوارع والأزقة ، التي اتسمت بالضيق والتعرج.
- دون أن ننسى دور طبوغرافية المكان في توفير مادة البناء ، التي تمثلت في: الطين ، حيث ينتج منها الطوب اللبن ، ثم الحجارة الجيرية المتوفرة من المقالع التي توفرها ، جغرافية المكان ، ثم الجير الذي يستخرج من خرق الحجارة الجيرية ، ويستعمل في طلاء المباني وكسوتها باللون الأبيض.هذا فضلاً عن مادة الخشب المتوفرة من زراعة النخيل التي تكثر في المنطقة ، والتي تعد المورد الأساسي في معيشة الأهالي.

المناخ:*

يعد المناخ من أهم العناصر البيئية تأثيراً في شكل العمارة ، وقد أثر المناخ تأثيراً مباشراً وفعالاً في تخطيط المدينة الإسلامية ، كما اهتم المسلمون أيضا بالاعتبارات المناخية عند اختيار مواقع مدنهم[١٤] وقد تشابهت تأثيرات المناخ في معظم المدن الإسلامية ، سيما وأن معظمها يقع في المناطق الحارة ، ونظراً لوقوع منطقة القورارة ، ضمن نطاق الصحراء الإفريقية الكبرى ، فقد كان لزاما على معماريوها ، أن يتبعوا بعض المعالجات المناخية في مبانيها ، والتي يمكن حصرها فيما يلي:

أ- الشكل المتضام للمباني: ويقصد به تقارب مباني المدينة ، بعضها من بعض ، بحيث تتكتل وتتراص قي صفوف متلاصقة لمنع تعرض واجهاتها لعوامل الطبيعة ، كأشعة الشمس المباشرة ، والرياح المحملة بالأتربة ، والتي تؤدي إلى رفع درجة الحرارة داخل المباني[١٥] ؛ وقد اعتمد هذا الحل في عمائر القورارة ،كمعالجة مناخية.

ب- ضيق الشوارع وتعرجها: من المعالجات المناخية التي اتبعت في مباني القورارة ، ضيق الشوارع وتعرجها ، مما يؤدي إلى قلة تعرضها للإشعاع الشمسي المباشر ، إضافةً إلى التعرج الذي يعمل على كسر التيارات الهوائية ، صيفاً وشتاءاً ، كما أن جزء كبير من تلك الشوارع سقفت ، وذلك لتوفير أكبر قسط من الظلال داخل الكتلة المعمارية ، وفي هذا المجال ماثلت عمارة القورارة عمارة معظم المدن الإسلامية ، الواقعة تحت تأثير نفس الظروف المناخية.[١٦]

ت- قلة الفتحات الخارجية للمباني: نظراً لارتفاع درجة الحرارة في منطقة القورارة ، وشدة الإضاءة الناتجة من أشعة الشمس المباشرة على الواجهات الخارجية للمباني ، فقد عمل المعماري على جعل واجهات المباني صماء ، حيث قلل من الفتحات الخارجية ، وإن وجدت فهي صغيرة الحجم ، ودلك لإدخال النور والتهوية ، أما تلك المطلة على الفناء الداخلي ، فقد جاءت متسعة إذا ما قورنت بالتي في الخارج ، وذلك لخلق تيارات هوائية كافية للغرف.

ث- الفناء الداخلي: يعد الصحن أحد مميزات العمارة الإسلامية ، فقد اشتهر تصميم البيت الإسلامي بانغلاقه على الخارج ، وانفتاحه على نفسه ، وذلك من خلال فضاء وسطي ، تتم عن طريقه الإضاءة والتهوية ، وتوزيع الحركة إلى باقي عناصر البيت ، ورغم تضارب الأقوال حول أصل هذا العنصر ، وسبب انتشاره الواسع ، فإن ارتباطه بالثقافة الإسلامية ، بقواعد السلوك الاجتماعي ، أمر جازم لا يمكن التشكيك فيه ، ويكمن سر نجاحه ، في استجابته لضرورة عزل البيت عن خارجه ،لاختلاف توزيع النشاط الاجتماعي بين الرجال والنساء ، حيث يمثل داخل البيت المجال النسوي ، بينما يمثل الشارع مجال الرجال[١٧] ،كما أن الصحن المكشوف ، والشوارع الضيقة ، هما مظهران أساسيان يميزان تخطيط المدينة الإسلامية ، فهما يعملان على توفير الظلال ، والحماية من الأشعة الشمسية ، ومن جانب آخر فإن اختلاف الضغط الناشئ نتيجة ضيق الشوارع ، مقارنة بالأفنية الداخلية ، يسمح بانتقال الهواء ، من خلال فتحات ومداخل المباني ، من الشوارع الضيقة الأكثر تظليلاً ، إلى الأفنية المفتوحة ،[١٨] بالإضافة إلى كل هذا ، فالصحن هو مصدر النور والتهوية ، لكامل

عناصر البيت ؛ وعندما يشعشع النور في الحيز والفراغ المعماري ، فإنه إشراقة الحياة ، فالنور والعين هما قطبا استيعاب المحسوس وبالنور يتحول عجين المادة روحا.[١٩]

وقد اتخذ الفناء الوسطي لبيوت القورارة ، كإحدى المعالجات المناخية ، لمقاومة حرارة الصيف الشديدة.

ج- زيادة سمك الجدران الداخلية: نظراً لدرجات الحرارة المرتفعة التي تميز منطقة القورارة ، فقد عمد بناة القورارة ، إلى الزيادة في سمك جدران المباني ، حتى أنه يتراوح سمك الجدار مابين ٥٠سم الى ٧٠سم ، فالعلاقة بين سمك المادة ومقاومتها الحرارية ، علاقة تناسب طردي ، فالمعروف أن التوصيل الحراري هو معدل تدفق الحرارة ، خلال مادة أو مجموعة من المواد ، المرتبطة ببعضها البعض ، في نظام إنشائي موحد.[٢٠]

ح- حجم الغرف: يلاحظ في غرف بيوت القورارة على العموم صغر حجمها ، وقد اتخذت في بعض الأحيان شكلاً طولياً ، وهذا راجع للمادة الخشبية المستعملة في التسقيف ، والتي تعتمد في غالب الأحيان على جذوع النخيل ، علماً أن طول الجائزة لا يتعدى الثلاثة أمتار.

خ- مادة البناء: كان للمناخ السائد في منطقة القورارة ، دور في اختيار مادة البناء التي توفر قسط من البرودة في فصل الصيف ، وآخر من الدفء في فصل الشتاء.

ولهذا كان اختيار مادة الطين ، من الاختيارات الموفقة في عمارة القورارة ، إذ يعد الطوب المجفف في الشمس ، من المواد غير الموصلة ، فهو يحتفظ بالحرارة طوال النهار ، وينشرها في الليل وذلك لضعف مقاومته ، والمقدرة ب ٠.٢٢ حريرة لكل دقيقة وبالسنتيمتر مربع[٢١] ، كما أن العمائر الطينة ، ذات مناخ صحي ، معتدل باردة صيفاً ودافئة شتاء[٢٢] ، ويبقى الهدف الأسمى من العمارة الطينية ، هو منع انتزاع الإنسان من محيطه الطبيعي.[٢٣]

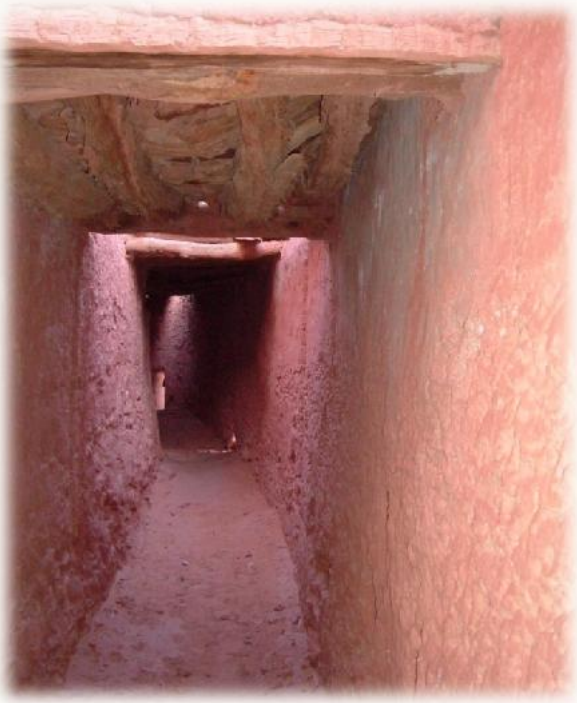

ضيق الشوارع وتعرجها ، وتسقيفها ،إحدى المعالجات المناخية في المناطق الحارة

تأثير العامل الديني

تلعب التعاليم الدينية دوراً مهماً في توجيه حياة الإنسان ، ويظهر ذلك جلياً في شكل الفنون ، ذلك لأن البعض يذهب إلى أن الدين هو أصل نشأة الفنون ، ومن هذا فقد اصطبغ الفن الإسلامي بسمات الدين ، ذلك لأن الفنان المسلم عليه أن يلتزم بتعاليم الدين الإسلامي ، إلا أن التزام الفنان المسلم بالمعتقد الديني لم يسلبه شخصيته ، ولم يأسره في شكل جامد متحجر ، كما أنه لم يمنعه التطور[٢٤].

وبفعل امتثال الفنان المسلم للتعاليم الدينية ، اتجه إلى عالم الزخرفة المجردة ، فقد عبر من خلال الزخرفة عن الفكرة المطلقة التي كانت محور الكون ، وقد لجأ لتكرار العنصر الزخرفي(الأرابيسك) تكراراً بلا كلل ولا ملل ، ليعكس التسبيح وما نردده لفظاً وانفعالاً ، ونحن نسبح باسم الله في الذكر مئات المرات(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله).[٢٥]

ومن هذا المنطلق جاءت العمارة الإسلامية تجسيدا للفكر السائد ، الذي نصت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، سعياً منها لتنظيم حياة المسلمين وشؤونهم ، ولهذا عمل الفقهاء على تنظيم الجانب المعماري للمسلمين ، فنشأ بذلك فقه العمارة الإسلامية الذي اتخذ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لا ضرر ولا ضرار) قاعدة له وقد ظهر لنا تأثير العامل الديني في عمارة القورارة في ما يلي:

شكل المباني:

لقد بنيت الوحدات وفق الشكل المتضام[٢٦] ، حيث جاء الوحدات متقاربة بعضها من بعض ، فلا يمكن التمييز بين بيوتها إلا من خلال الأسطح ، وقد جسد هذا الشكل قول الرسول صلى الله عليه وسلم:(مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ، وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام:(المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا).

فالأحاديث السابقة تدل على ضرورة التكافل ، والتعاون بين المسلمين ، ولهذا انعكس هذا المبدأ ، على الحياة الاجتماعية للأهالي ، والتي تتميز بالتعاون في كل مجالات الحياة ، وعليه جاء شكل النسيج المعماري يجسد هذه المعاني ، حتى أنه لا يمكن التفريق بين بيت الفقير والغني ، إلا من خلال بعض الطوابق في بعض الأحيان ، وما يبرهن على وحدة المباني ، في هذا النسيج المعماري ، هو ما آلت إليه من تهدم بعد أن باشر ساكنوها بالترميم ، زيادةً ونقصاناً.

كما يظهر تأثير العامل الديني في بساطة تلك المباني ، سواءاً من ناحية مادة البناء* والزخرفة ، حتى يمكننا وصفها بعمارة الزهاد ، وفي هذا نستحضر دعوة التعاليم الإسلامية الى عدم الإسراف في كل الأمور ، إنما على المؤمن أن يأتي منها ما يعينه على عبادة الله ، وقد ظهر لنا ذلك في نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن تزيين المساجد لأنها تلهي المصلين في صلاتهم وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم:(لا تقوم الساعة ، حتى يتباهى الناس بالمساجد) ، وقوله:(ما أمرت بتشييد[٢٧] المساجد) ، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم (لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى)[٢٨].

تخطيط الدور:

لقد ارتبط تصميم المسكن بالتعاليم الإسلامية التي تنظم حياة الأسرة ، وأسلوب معيشتها ، ومن ذلك حرمة المسكن التي تعبر عن حرمة الإنسان ، فلهذا حرم الشارع الحكيم كشف عورات البيوت ، حيث يقول الله تعالى في آداب الزيارة من سورة النور(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ، حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) وانطلاقاً من هذه التعاليم الدينية ، اتخذ منفذوا المباني بالمنطقة ، عدة إجراءات كان من أهمها:

المدخل المنكسر:

لعل أهم تأثير لأحكام البناء على المداخل ، يظهر في تنكيبها([٢٩]).وهو ما يعطي المدخل المنكسر ،و يعرف كذلك باسم الباشورة. حيث يقال أن أصوله قديمة ، ذلك أن أقدم نموذج له يوجد في شونة الزيبب ، ويرجع إلى العهد الفرعوني ، حيث يؤرخ بين سنتي ٢٦٢٥-١٧٨٨قبل الميلاد.[٣٠] وعموماً فمدخل الدار يمثل نقطة الانتقال بين عالمين منفصلين(الخارج والداخل) ، ولذلك فقد حظيت المداخل باهتمام كبير في تصميمها ، فكان المدخل المنكسر ، هو الحل بحيث لا يسمح برؤية ما بالداخل كما أن الانكسار يكون حسب مستوى معيشة العائلة ، مضاعفاً أو بسيطاً[٣١].

وعلى هذا الأساس وضع الفقهاء ، ضوابط لفتح الأبواب الخارجية ، تهدف إلى منع الإطلال على ما بداخل بيوت الجيران ، وقد صنفوا المسألة في ثلاث حالات حسب وضع الباب ، في الشارع النافذ الواسع والشارع النافذ غير الواسع وفي غير النافذ ، ومن ذلك ما أورده أحد الفقهاء ، أنه إذا كان الزقاق سالكا نافذا يمكن للمالك أن يفتح ما شاء من الأبواب ، لأن الباب معرض باستمرار للمارة ، أما في حالة الزقاق الضيق فلا يجوز للجار أن يفتح قبالة جاره ، ولهذا قال العديد من الفقهاء بضرورة تنكيب المدخل.

كما يظهر لنا تأثير الدين في عمارة البيوت ، وذلك من خلال وجود الصحن المركزي الذي يعد مركز البيت ، فالصحن بهذا الشكل في العمارة الإسلامية ، يمثل ضرورة وحدة المسلمين ، حول قائد واحد وإمام واحد ، تستلهم منه الأمة منهاج حياتها العقائدية والدنيوية ، وقد جسد هذا النموذج في المدينة الإسلامية ، الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا الأساس جاء المسجد في قلب المدينة الإسلامية ، وبهذا جاء الصحن في عمارة البيوت ، العنصر الذي يعمل على جمع كل وحدات المسكن ، كما يمثل نقطة التقاء الأرض بالسماء ، وذلك من خلال تمكين ساكني المنزل من تأمل أجرام السماوات ، فيعظم في نفوسهم الخالق ،بعظمة مخلوقاته.

أثر القيم الدينية في مدافن القورارة:

لقد اشتمل النسيج المعماري للقورارة ،على مقابر لدفن الموتى ، شأنها في ذلك شأن جميع البلدان الإسلامية ، حيث غالباً ما تكون على مقربة من القصر ، وأن يكون موقعها مخالف لاتجاه الرياح ، لما في ذلك من فائدة صحية ، ولما في قرب الجبانة من يسر وسهولة في قبر الموتى وزيارتهم من حين لآخر.[٣٢]

وقد كان للدين أثر جلي على تلك المدافن ، ومن ذلك بساطة القبور ، وعدم ارتفاعها عن الأرض إلا بمقدار ما حدده الشرع الإسلامي ، فقد أمر نبي الله صلى الله عليه وسلم ، علي ابن أبي طالب فقال له:(ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) ، وفي النهي عن تجصيص * القبور ، أورد جابر أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:(نهى أن يجصص القبر ،وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه) ، ومن هذا فيحرم رفع القبر إلا بمقدار شبر ، ليعرف أنه قبر ، لكي لا يوطأ ولا يجلس عليه. وقد كان الولاة يهدمون ما بني في المقابر ، مما زاد على المشروع ، عملا بالسنة.[٣٣] ومع هذا فقد خالف الأهالي السنة في بعض الأحيان ، ويتمثل ذلك في وجود بعض القباب ، أو بعض القبور التي تعلوها مصاطب ، وهذا لتمييز قبور بعض الأولياء والصالحين[٣٤] ، وذلك للاعتقاد بنفع الأولياء ، وأصحاب الأضرحة.

خاتمة

وعموماً فقد كان للمناخ والقيم الدينية بوجه عام ، بصمة واضحة في تشكيل عمارة القورارة ، بدءاً من اختيار المواد الإنشائية المحلية ، والتي تتناسب مع المناخ السائد في تلك المناطق الصحراوية ، ووصولاً إلى تخطيط المباني ، وبهذا كان لهذه العوامل دور فعال في توجيه عملية الإنشاء. وعليه فقد كان هدف العمارة دوماً ، أن تجد للإنسان مأوى يحتوي فيه نشاطاته ، ويحميه من الأخطار أيا كان مصدرها ، فكان لابد لهذا المأوى أن يكون مأمنا للنشاط الإنساني ، الذي يحتويه من حيث انسجامه فراغيا مع نوع هذا النشاط ، ثم لابد له من أن يكون متينا قوياً ، وأن يؤدي لمستعمله كل راحة نفسية وجسدية ممكنة ، وقد حث الإسلام على ضرورة الموافقة بين المتطلبات المادية والروحية ، في جل أعمال الإنسان وما العمارة إلا واحدة منها.

المراجع المعتمدة

- ابن خلدون(عبد الرحمان):كتاب العبر.... ،طبعة مصححة ومنقحة ،للأبي صهيب الكرمي ،بيت الأفكار الدولية ،ب-ت)
- الوزان (حسن):وصف إفريقيا ،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ،دار الغرب الإسلامي لبنان ،الطبعة الثانية ،١٩٨٣
- العماري(أحمد):توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي ١٨٥٠م الى ١٩٠٢م ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس المغرب ،ب-ت.
- بن حموش (مصطفى):جوهر التمدن الإسلامي ،دراسات في فقه العمران ،دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ،الطبعة الأولى ،٢٠٠٦
- حملاوي (علي):نماذج من قصور منطقة الأغواط ،دراسة تاريخية أثرية ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الرغاية الجزائر٢٠٠٦
- سابق (السيد):فقه السنة ،دار الفتح للإعلام العربي ، ط ٢١ ،القاهرة١٩٩٩.
- سعد عبد الكريم شهاب ،أنماط العمارة التقليدية الباقية في صحراء مصر الغربية ،(دراسة تحليلية مقارنة) ،دار الوفاء لدمبا الطباعة والنشر ،الإسكندرية ،٢٠٠٩
- سليم فجال ،العمارة البيئية في المناطق الصحراوية الحارة ، دار الثقافة للنشر القاهرة ،طبعة أولى ١٤٢٢ هـ٢٠٠٢.
- سليقيني (محي الدين):العمارة البيئية ،دار قابس للباعة والنشر والتوزيع بيروت ،الطبعة الأولى ،ب-ت.
- شهوان(محمد): العمارة الطينية ...عمارة الفقراء ،مجلة المهندس العربي ،العدد ٧١ ،سنة١٩٨٣

- فـرج (محمـود فـرج): إقلـيم تـوات خـلال القـرنين ١٨-١٩ الميلاديين ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،١٩٧٧.
- محمـود إبـراهيم حسـين ،الأنا الفاعلـة فـي الفـن والعمـارة الإسـلامية ،(دراسـة فـي الفكـر) ،المجلـة العربيـة للعلـوم الإنسانية ،العدد ٥٢ ،جامعة الكويت١٩٩٨.
- عبد الرحيم (سعيد):العناصر المناخية والتصميم المعماري ،مطابع جامعة الملك سعود ،المملكة العربية السعودية ،١٩٩٤.
- يحي وزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ،(الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي) ،مطابع السياسة الكويت ،٢٠٠٤.

المراجع الأجنبية

- Laureaux-P: (Les Ksous du Sahara Algerien,unexemple d`architecture globale,Icomos Information, N0 3,juillet1987)

الهوامش

١ يحي وزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ،(الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي) ،مطابع السياسة الكويت ،٢٠٠٤ ،ص.١١

* يقع إقليم توات جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى, ويشمل هذا الإقليم على عدد من الواحات والقصور التي تزيد عن الثلاثمائة وخمسين واحة متناثرة بين الرمال وهي تغطي حوالي ألفين ميلا مربعا, يحده من الشمال العرق الغربي الكبير ووادي مقيدن ،ومن الجنوب صحراء تنزروفت ،وهي صحاري خالية,وكذلك وادي قاريت ؛وجبال موديدر,كما يحده من الغرب وادي الساورة وروافد وادي مسعود(لاستزادة راجع : فرج (محمود فرج): إقليم توات خلال القرنين ١٨-١٩ الميلاديين ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،١٩٧٧)

٢ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ،طبعة مصححة ومنقحة ،للأبي صهيب الكرمي ،بيت الأفكار الدولية ،ب ت ، ص.١٨٣٣

٣ الحسن الوزان ، وصف إفريقيا" ،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ،دار الغرب الإسلامي ،لبنان,١٩٨٣ ،جزء٢ ،ص. ١٣٤

4 Pietro-Laureaux: les k' sours du Sahara algerien,ecomos/info septembre,1987,p02

٥ احمد العماري ، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي ١٨٥٠-١٩٠٢ ، منشورات كلية الآداب
و العلوم الإنسانية فاس .ب.ت ،ص.٢١

٦ الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ص ١٣٣

٧ يحي وزيري ، المرجع السابق ،ص.٧٠

٨ سورة طه ،آية ٦٠

٩ سعد عبد الكريم شهاب ،أنماط العمارة التقليدية الباقية في صحراء مصر الغربية ،(دراسة تحليلية مقارنة) ،دار الوفاء لدميا الطباعة والنشر ،الإسكندرية ،ط١ ،٢٠٠٩ ،ص.١٦٣

١٠ سليم فجال ، العمارة البيئية في المناطق الصحراوية الحارة ، دار الثقافة للنشر القاهرة ،طبعة أولى ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٣ ص.٩٠

١١ سعد عبد الكريم شهاب ،المرجع السابق ،ص.١٦٣

١٢ أحمد العماري ،المرجع السابق.ص.١١

13 Piero-laureaux, les ksours du Sahara Algerien,un exemple dArchiecure globale,sd,p.2

* يعتبر عنصر الحرارة من أهم عناصر المناخ ،حيث تختلف درجات الحرارة من مناطق إلى أخرى ، إذ أن الحرارة ترتبط بكمية الإشعاع الشمسي الوارد إلى الأرض و بكمية الإشعاع الصادر منها ،و تعد خطوط العرض من أهم العوامل المؤثر في توزيع درجات الحرارة ،فالمناطق التي تقع على خط عرض واحد تنال نفس القدر من أشعة الشمس ؛وإذا علمنا أن مناطق الإقليم تقع ضمن الصحراء الإفريقية الكبرى و كونها تقع بين خطي عرض ٢٦ ٠ — ٣٠٠ شمالا ومن ذلك فكمية الإشعاع الشمسي لتلك المناطق تكون كبيرة ؛ وعلى هذا الأساس امتاز الإقليم بمناخ صحراوي جاف شديد البرودة شتاء ،ا و حار صيفا حيث تصل درجة الحرارة أحيانا إلى ٥٠٠ د تحت الظل و هذا المناخ الصحراوي يمتاز كذلك بقلة الأمطار و هبوب الرياح مع قلة الرطوبة و كل هذه العوامل تؤثر في درجة الحرارة .

١٤ يحي وزيري ،المرجع السابق ،ص.٩٠

١٥ يحي وزيري ،نفسه ،ص.٩٥

١٦ سعد عبد الكريم شهاب ،المرجع السابق ،ص.١٦٧

١٧ مصطفى بن حموش ، جوهر التمدن الإسلامي ،دراسات في فقه العمران ،دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ،الطبعة الأولى ،٢٠٠٦ ،ص.٩٣

١٨ يحي وزيري ،العمارة الإسلامية..... ،ص.٩٩

١٩ محي الدين سليقيني ، العمارة البيئية ،دار قابس للباعة والنشر والتوزيع بيروت ،الطبعة الأولى ،ب ت ،ص.١٥

٢٠ سعيد عبد الرحيم ،العناصر المناخية والتصميم المعماري ،مطابع جامعة الملك سعود ،المملكة العربية السعودية ،١٩٩٤ ،ص.٧٣

٢١ علي حملاوي ، نماذج من قصور منطقة الأغواط ،دراسة تاريخية أثرية ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الرغاية الجزائر٢٠٠٦ ،ص.٢٩٠

٢٢ محي الدين سلقيني ، المرجع السابق ،ص.١٢٠

٢٣ محمد شهوان ، العمارة الطينية..... عمارة الفقراء ، مجلة المهندس العربي ، العدد ٧١ تموز آب ، سنة ١٩٨٣

٢٤ محمود إبراهيم حسين ،الأنا الفاعلة في الفن والعمارة الإسلامية ،(دراسة في الفكر) ،المجلة العربية للعلوم الإنسانية ،العدد٥٢ ،جامعة الكويت١٩٩٨ ،ص.٢١٠

٢٥ محمود إبراهيم حسين ، نفسه ،ص.٢١٣

٢٦ يحي وزيري ،المرجع السابق ،ص.٩٥

* ولعل هذه الإشارة تومض لنا بوحدة الأرض والإنسان(أصل الإنسان ،والعمارة) ،وهذا المفهوم يدخلنا عالم الانسجام الكلي المطلوب ،بين العمارة والكون الحي ،وان العناصر المكونة لهما واحدة تقريبا.

٢٧ أي برفع بنائها ،زيادة على الحاجة

٢٨ سـابق السـيد ، فقـه السـنة ،دار الفـتح للإعـلام العربـي ، ط٢١ ،القاهرة١٩٩٩ ،ص.١٧٨

٢٩ هو عدم مواجهة أبواب المنازل ،بعضها ببعض ،حتى لا يكشف الخارج والداخل إليها ،وقد نظمت أحكام الفقه الإسلامي ،عملية التنكيب وفي أي المواضيع من شوارع المدينة تتم ،وهي لازمة بصفة خاصة في الشوارع الضيقة.(راجع خالد عزب:فقه العمارة الإسلامية)

٣٠ فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،المجلد الأول ١٩٧٠ ،ص.١٩١

٣١ مصطفى بن حموش ،جوهر التمدن... ،ص.٩٢

٣٢ سعد عبد الكريم شهاب ،أنماط العمارة التقليدية ،.....ص.١٥٦

* معناه الطلاء بالجص ،وهو الجير المحروق

٣٣ السيد سابق ،فقه السنة... ،ص.٣٨١-٣٨٥

٣٤ يرى البعض استثناء أهل الفضل برفع القباب فوق قبورهم ،وذلك أسوة بقبور آل بيت النبي ،ويبدوا أن أصحاب هذا الرأي قد اعتمدوا على اختلاف العلماء في الكتابة على قبور بعض العلماء ،حتى لا تطمس آثار القبر ،ولكن يبقى الرأي الصائب هو التحريم ،مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم ،حينما تحدث عن اليهود ،فقال:(أولئك قوم إذا مات منهم الرجل الصالح ،أو العبد الصالح ،بنو على قبره مسجدا) ثم لعنهم (للاستزادة ،أنظر السيد سابق ،فقه السنة ،الجزء الأول)